قراءة فى كتاب
طرق الإرشاد فى الفكر والحياة

قراءة: وليد عبد الماجد كساب

طرق الإرشاد فى الفكر والحياة

تأليف: الأستاذ/ محمد فتح الله كولن

ترجمة: إحسان قاسم الصالحى

دار النيل للطباعة والنشر بالقاهرة

الطبعة الأولى

مثّل الأستاذ محمد فتح الله كولن مدرسة فكرية متميزة لها فلسفتها الخاصة، التى تعتمد على فهم الإسلام فهمًا شاملاً، ومعالجة قضاياه فى ضوء مقتضيات العصر، وقد أتاحت له حرتيه الرائدة فى التحاور والتقريب بين الفئات المختلفة والمذاهب المتباينة، أتاحت له الوقوف على عِلل المجتمع وعيوبه الظاهرة والباطنة.

وُلِد الأستاذ محمد فتح الله كولن فى ٢٧ نيسان عام ١٩٤١ فى قرية صغيرة تابعة لقضاء "حسن قلعة" بمحافظة أرضروم، وهى قرية كورجك، ونشأ فى عائلة متدينة، وكان والده "رامز أفندى" شخصًا مشهودًا له بالعلم والأدب والدين، وكانت والدته سيدة معروفة بتدينها، وقامت بتعليم القرآن لابنها محمد ولم يتجاوز الرابعة من عمره، حيث ختم القرآن فى شهر واحد.

كان بيت والده مضيفًا لجميع العلماء المعروفين فى تلك المنطقة؛ لذا تعوّد مجالسة الكبار والاستماع إلى أحاديثهم، وقام والده بتعليمه اللغة العربية والفارسية.

درس فى المدينة الدينية فى طفولته وصباه، وكان يتردد إلى كثير من علماء تركيا المعروفين، ومن أبرزهم "عثمان بكتاش"، الذى كان من أبرز فقهاء عصره، حيث درس

عليه النحو والبلاغة والفقه وأصول الفقه والعقائد.. ولم يهمل دراسة العلوم الوضعية والفلسفة أيضًا. وقد تأثر كثيرًا ببديع الزمان سعيد النورسى صاحب "رسائل النور".

وبتقدمه فى العمر ازدادت مطالعاته وتنوعت ثقافته، فاطلع على الثقافة الغربية وأفكارها وفلسفاتها، وعلى الفلسفة الشرقية أيضًا، وتابع قراءة العلوم الوضعية كالفيزياء والكيمياء وعلم الفلك وعلم الأحياء... إلخ.

وعندما بلغ كولن العشرين من عمره عُيِّن إمامًا فى جامع "أُوجْ شرفلى" فى مدينة أدرنة، حيث قضى فيها مدة سنتين ونصف سنة فى جو من الزهد ورياضة النفس. ثم عمل واعظًا، فطاف جميع أنحاء غربى الأناضول.

بدأ الأستاذ فتح الله -ولاسيما بعد عام ١٩٩٠م- بحركة رائدة فى الحوار والتفاهم بين الأديان وبين الأفكار الأخرى، متسمة بالمرونة والبعد عن التعصب والتشنج، ووجدت هذه الحركة صداها فى تركيا ثم فى خارجها.. ولا يزال الأستاذ كولن يمارس الدعوة الإسلامية مؤمنًا بعالمية هذا الدين الخاتم، الذى بُعِث به النبى الكريم ﷺ رحمة للعالمين.

ويتناول المؤلف فى هذا الكتاب قضية تبليغ الدعوة الإسلامية وطرق الإرشاد، وقد أحسن الأستاذ كولن حين أضفى على كتابه هذا اسم «فقه المعاناة والألم»، فالمؤلف يبحث فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من جوانب مختلفة، واضعًا فى الحسبان أنه من أحكام الإسلام الضرورية التى لا يمكن إغفالها بأى حال من الأحوال. **وفى الفصل الأول** وتحت عنوان «تحليل التبليغ» يلقى أستاذ كولن الضوء على أهمية قضية التبليغ كأصل من أصول الرسالات، وهل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلا طريق يؤدى إلى الغاية من خلق الوجود، وهى الدعوة؟ وقد أشار القرآن الكريم إلى استحقاق هذه الأمة لخيريتها لقيامها بهذا الأمر ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[آل عمران:١١٠].

والدعوة من لدن آدم -عليه السلام- حتى الآن تقوم على الإبلاغ والنصح، فنجد نوحًا الذى لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، يقول لهم: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[الأعراف:٦٢].

وحين أرسل هود إلى قومه «عاد» خاطبهم بقوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[الأعراف:٦٨]، وهكذا مع بقية الأنبياء والمرسلين -عليهم السلام- الذين أرسلوا لهداية مجتمعات مادية، فلاقوا عنتًا شديدًا. فمع المعجزات التى أيد بها موسى، فقد كذّبه قومه كثيرًا، واستشهد أنبياء كثيرون كزكريا ويحيى وغيرهم -عليهم جميعًا السلام-.

وحسب ما يرى المؤلف، فإن الإنسان اليوم فى أمسّ الحاجة إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فالنبوة انتهت بخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، فلا ينتظر لهذا العالم نبى آخر يأتى لهدايته وإرشاده.

والتبليغ هو أثمن هدية يمكن أن يتهادى بها الناس فيما بينهم، فما أحوج البشرية إلى هذه الهدية، وفى ذلك يقول النبى ﷺ لسيدنا على -كرم الله وجهه-، حين أرسله إلى خيبر: «...فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحدًا خير لك من أن يكون لك حُمر النعم» (متفق عليه)، وهذا التبليغ -بلا شك- يتطلب الاستمرارية والديمومة، فالبشرية محتاجة إليه طالما كانت هناك حياة قائمة على ظهر هذه الأرض.

ثم يتناول المؤلف جوانب التبليغ المتوجهة إلى الحق سبحانه وتعالى، وكذلك المتوجهة إلى الخلق، فيفرّق بين كون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يؤدى حسبة لوجه الله -تعالى- أو إحقاقًا لحقوق الناس.

ويتحدث المؤلف عن التبليغ والعلاقة بين الفرد والمجتمع، فالفرد هو جزء لا يتجزأ

من المجتمع، وهو إحدى لَبِناته، ويدلل على ذلك بموقف الصحابى الجليل جعفر بن أبى طالب -رضى الله عنه- مع النجاشى ملك الحبشة، وكيف أحسن عرض فكرته بشكل دعوى مُتَّزِن، مقارنًا بين مرحلتين متباينتين عاشها المجتمع المكى، وهما: مرحلة ما قبل الإسلام، وما بعد الإسلام، ومبينًا خصائص كل مرحلة منهما.

ويقابل المؤلف بين الإرشاد والإيمان من ناحية، والنفاق من ناحية أخرى، فالمؤمنون والمؤمنات يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، والمنافقون والمنافقات يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، وشتان ما بين الفريقين.

ويستعرض الأستاذ كولن قضية الإرشاد والهلاك من خلال الحوادث التاريخية منذ عصر سيدنا نوح -عليه السلام-، ومرورًا بصالح -عليه السلام-، فلوط -عليه السلام- وآخرين، ويَخْلُصُ إلى نتيجة مهمة، هى: أنه لضمان دوام المجتمعات المؤمنة دعامتان أساسيتان، هما: الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، فإن افتقدهما مجتمع من المجتمعات حق عليه الهلاك من الله -عز وجل-.

أما الفصل الثانى من الكتاب، فيدور حول أصول التبليغ ومبادئه، ويعالج علاقة العلم بالإرشاد، فالعلم هو معرفة الإنسان لربه بعد معرفته لنفسه، أو رؤية الإنسان لربه ويجعل نفسه مرصادًا لمشاهدة الصفات والأسماء الإلهية، بما يتكتشفه فى مشاعره وسعيه للوصول إلى معرفة ربه والعلم به.

ويشدِّد الأستاذ كولن على ضرورة الإلمام بمجريات العصر؛ لأن الجهل بتلك المجريات يجعل الداعية يعيش فى سرداب مظلم، ومن ثم تكون هناك فجوة وهُوَّة واسعة بينه وبين الجمهور، وعلى الداعية أن يتحرى الوسائل المشروعة فى دعوته، فمبدأ «الغاية تبرر الوسيلة» ذلك المذهب الميكافيللى أمر مرفوض مطلقًا، فلما كان الهدف هو الحق، ولما كان الباطل بمثابة العدو، فقد كان اتخاذ الباطل مطية للوصول إلى الحق أمرًا مرفوضًا؛ لأن الحق واضح وضوح الشمس فى كبد السماء.

وعلى المبلّغ ألا يسأل أجره على تبليغه لأن طلب الأجر يذهب الإخلاص والصدق، وهو ما أظهره القرآن الكريم في مواضع عدة على لسان الأنبياء والمرسلين - عليهم السلام- ﴿اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[يس:٢١].

إن معرفة المخاطب وأسلوب التفاهم معه شيء ضروري لنجاح التبليغ، فلكل مخاطب طبيعته وخصائصه، والنقاش والمجادلة أمر مرفوض إذا كان سيخرج الطرفين أحدهما أو كلاهما إلى حيز الضيق والضجر.

إن تطبيق الوسائل التي سبق ذكرها لا يمكن تطبيقها في ظل الجهل بثقافة العصر الذي نعيش فيه، ومن ثم يتوجب على المبلّغ أن يحيط بما يستجد حوله من معطيات وأحداث جارية، حتى لا يكون بمعزل عن مجتمعه، فيكون الفشل حليفًا له.

وعلى المبلّغ أيضًا أن يحيا بما يبلغ، ويبلغ بما يحيا، بحيث لا يكون الظاهر خلاف الباطن؛ لأن ذلك من صفات المنافقين، والتبليغ -على ذلك- ليس وظيفة فحسب، بل هو معيار ومقياس للمجتمع الإسلامي، فعليه ينظمون حياتهم وشئونهم، ومن ثم فليس الذهاب إلى المسجد أو العودة بمقياس، فالأمر أكبر من ذلك بكثير.

وفي محاولة للأستاذ كولن للربط بين التبليغ والمعاناة، يشير إلى أن المعاناة والابتلاء نتيجة طبيعية للتبليغ، فكل الأنبياء الأطهار تعرّضوا لتلك المعاناة، بل وللتنكيل أيضًا، فالمبلِّغ مترقب دائمًا لمواجهة المصاعب والمتاعب، ويلقن نفسه بهذا باستمرار، ويعتقد يقينًا أنه لا يفلح ما لم يصبه ما أصاب الذين قبله في دعوتهم.

كما لا بد للمبلِّغ أن يكون مرتبطًا بالله عز وجل، فالأصل هو الارتباط بالخالق - سبحانه وتعالى- الذي له مقاليد كل شيء، والهداية خزينة عظيمة لا يملك مفتاحها سوى من له خزائن السموات والأرض.

ويعرج المؤلف على أهمية الدعاء وارتباطه بالتبليغ، والصفاء والإخلاص أيضًا من لوازم التبليغ، ولكل ذلك أثره الكبير على إيناع شجرة الدعوة الإسلامية، كما يتحدث عن المثابرة والمواظبة وعدم اليأس، فليس اليأس من شِيَم الدعاة والمبلغين.

أما الفصل الثالث من هذا الكتاب، فقد أفرده الأستاذ كولن لتقديم صورة قلمية لروح المبلِّغ، أو هى بالأحرى صفات يجب عليه أن يتحلى بها، مثل: الشفقة ذلك الخلق الإنسانى الرفيع، وقد ضرب النبى ﷺ المثل الرائع، فقال ﷺ: «إنما أنا لكم مثل الوالد»(رواه أبو داود والنسائى).

والتضحية أمر مطلوب للتبليغ، وإن شئنا قلناهى «ضريبة التبليغ»؛ لأن سنن الكون تحتم على الأنبياء والدعاة والمصلحين أن يضحوا بأثمن ما لديهم من مال أو جهد أو وقت، بل وقد يتطلب الأمر أن يجودوا بحياتهم لقاء دعوتهم.

والدعاء لدى المبلغ وصف ملازم له لا يقل أهمية عن الصفات الأخرى، فهو لا ينتظر هداية من يبلغه إلا من الله -عز وجل-، فالله سبحانه يضل من يشاء ويهدى من يشاء، يقول تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ﴾[الفرقان:٧٧].

إن المبلّغ لابد له أيضًا أن يكون منطقيا وواقعيا فى تقييمه للأحداث أو فى تفهيم مخاطبيه، فهو دائمًا ينزل منازلهم، ويتدلى إلى مستوى مداركهم، كما لابد من التحلى بالتسامح، فهو ضرورى لكل داعية ومبلِّغ، وليس فى التسامح معنى التنازل عن الثوابت أو النفاق والمداهنة -كما يرى البعض-، وإنما حياة النبى ﷺ مليئة بالمواقف المشهودة، وهى مواقف تنأى عن الحصر.

ورهافة الحس أمر ضرورى لكل من يتصدى للدعوة، فلا يمكن تصور الداعية مسلوب الحسّ، وقد كان نبينا ﷺ شديد الحساسية مرهف الحس، حتى إن القرآن الكريم ينقل له قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[الشعراء:٣]، ويقول أيضًا مهدئًا من روعه وحرصه: ﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾[فاطر:٨].

والمبلِّغ أيضًا صاحب عالم روحى عميق، فهو متعلق بالله خالقه، وقوله ينعكس على الآخرين بنسبة عمق عالمه الروحى، فكلما اقترب إلى المولى عز وجل قرَّبه المولى إليه، حتى يكون عبدًا ربانيا، كما إن المبلغ لا بد أن يكون مفعمًا بالشوق والاشتياق

صافى القلب رقيق الروح، إذ بخلاف ذلك تكون علاقته مع الحق -سبحانه- كدرة غير صافية بنسبة كدر عالمه الروحى.

كانت تلك إطلالة موجزة على كتاب «طرق الإرشاد فى الفكر والحياة» للأستاذ محمد فتح الله كولن، وهو كتاب مهم لكل من يَشْرُفُ بالدعوة إلى الله -تعالى- على هدى وبصيرة، فهو يرسم له الطريق السليم للتبليغ والإرشاد.

❊ ❊ ❊